العلاقة بين الآباء والأبناء

بقلم د. صلاح الدين النكدلي

▪ هل العلاقة بين الآباء وبين الأبناء في حاجة إلى حديث ؟ أليست العلاقة بين الجيلين جيدة في الأسر الإسلامية التي انبثقت من أبوين هجرا كبائر الإثم والفواحش وأقاما ما فرض الله عليهما ؟

▪ وجواباً على هذين السؤالين أقول :

إن الكلام على العلاقة بين جيل الآباء وجيل الأبناء يدخل في باب « التذكير » كما يدخل في باب « النصيحة » .

– ففي محكم التنـــزيل :

﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الذاريات : ٥٥]

﴿ **فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى** ﴾ [الأعلى : ٩]

وهذا التذكير يرقى إلى مستوى الواجب الذي ينبغي أن يتكرر الحديث عنه في مناسبات متعددة .. لأننا في زمان تفشَّت فيه ظاهرة انفصال العلم عن العمل .. هذه الظاهرة هي التي دفعت رجلاً مثل الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى إلى أن يقول في كتابه « هكذا علمتني الحياة » :

« نحن بحاجة إلى العمل بما نعلم أكثر مما نحن بحاجة إلى تعلم ما نجهل » .

وهذه الظاهرة أثر من آثار ضعف الإيمان في القلوب .

– وفي الحديث عن المعصوم ﷺ :

« **الدِّينُ النَّصِيحَةُ . قُلْنَا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ . قَالَ : لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ** » .

والنصيحة تكون بالدعوة إلى ترك المحظور أو فعل المأمور به .

هذا ، وأحب في بداية الحديث أن أشير إلى حقيقة ينبغي أن لا تغيب عنا ونحن نتحدث عن مسألة لها علاقة مباشرة بالأخلاق ، وهي :

« **إن تقرير القواعد الأخلاقية أمر سهل ميسور ، وقد ينهض بهذا الواجب أفراد موهوبون ، ولكن تحويل المقررات إلى سلوك نفسي وعملي هو الذي يحتاج إلى جهد ومجاهدة وصبر ومصابرة .. ألا ترون أن الفضائل معلومة عند كثير من الناس ، وأن المشكلة تكمن في عزوف كثير منهم عن صبغ حياتهم بها .. وأن الرذائل ليست مجهولة عند كثير من الناس أيضاً ، ولكن التخلي عنها لا يرقى إليه إلا قلّة من عباد الله الصادقين** » .

والتقصير في العمل بمبدأ « التخلي والتحلي » يدعونا إلى تذكير بعضنا بعضاً بضرورة « التوبة » : من ترك العمل بالفضائل ، ومن الوقوع بما لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ لعباده ..

وبعد :

فإن علاقة الآباء بالأبناء تقوم على « **المسؤولية** » التي أناطها الله عزَّ وجلَّ بالأبوين .. والنصوص على ذلك كثيرة ، منها :

- يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ... ﴾

- ويقول النبي ﷺ :

« **كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَ كُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِمَامُ رَاعٍ ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ، وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ** » رواه الإمام أحمد وغيره (صحيح الجامع الصغير ٤٤٤٥) .

- ويقول ﷺ :

« **كُلُ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِه** » رواه الطبراني وغيره (السلسلة الصحيحة ٤٠٢)

من هذه النصوص وغيرها كان التوجيه الإسلامي إلى كل من الزوجين واضحاً عند الزواج .. والنصوص بيّنت نوعية « **الزوج** » الذي ينبغي السعي إليه والحرص عليه .. إنه ذاك الرجل الذي شعر بالعبودية المطلقة لله عزَّ وجلَّ فنهض إلى العلم والعمل .. وإنها تلك المرأة التي شعرت بمسؤوليتها فتعلمت ما يجب وعملت كما ينبغي العمل ..

- ففي الحديث :

« **تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ** »[1] رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

- وفي الحديث :

« **إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ** » رواه الترمذي .

وعبارة « **ذات الدين** » وكذلك « **من ترضون دينه وخلقه** » لهما دلالات عميقة واسعة .. فالدين هو جميع ما أوحى به الله تعالى إلى نبيه ﷺ وذلك يشمل : « **العقيدة** » و « **الشعائر التعبدية** » و « **الأخلاق** » و « **التشريع لواقع الحياة في كافة مناحيها** » .

والمتدين « صاحب الدين ، صاحبة الدين » ، هو من آمن بما جاء به النبي ﷺ من عند الله تعالى وأنزل كل مسألة المنزلة التي يريدها الله عزَّ وجلَّ .. فمن قصّر في تعلم ما يجب عليه ، أو قصّر في العمل فإن إيمانه ناقص .. وتديّنه فيه ضعف .

وقد يقول قائل : إن هذا الكلام جميل .. ولكننا جيل نشأ في بيئة مريضة .. وحملنا في داخلنا من أوبئتها الشيء الكثير .. ونحن أسرى أخلاقِ وعاداتِ البيئة الفاسدة .. ولا نستطيع ، وقد تقدمت بنا السن ، أن نتخلى عن ماضينا .. بعاداته وتقاليده ونظرته إلى كثير من القضايا .. إننا – على سبيل المثال – نعلم فضل الحِلْمِ وسوء عاقبة الغضب .. ونؤمن بقول المعصوم ﷺ : « **لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ ،**

(1) قال ابن منظور في « لسان العرب » (١/٢٢٨-٢٢٩) : تَرِبَ الشيءُ ، بالكسر : أصابه التراب . وترب الرجل : صار التراب في يده .. وتَرِبَ تربا ومتربةً : خسر وافتقر فلزق بالتراب .

وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » أخرجه الشيخان وأحمد ومالك ، ولكننا كثيراً مـــا نثور ونغضب لأمور تافهة .. وندرك بعد ذلك أنه لا ينبغي أن نصنع ما صنعنا .. فما العمل ؟

هؤلاء الإخوة يجب أن يعلموا :

أن العمل بالوحي ميسر : ﴿ **وَلَقَـــدْ يَـــسَّرْنَا الْقُـــرْآنَ لِلـــذِّكْرِ ... فَهَـــلْ مِـــنْ مُـــدَّكِرٍ** ﴾ [القمر : ١٧] .. والمثل الحي خير القرون .. لقد نشأ معظم جيل الصحابة في بيئة جاهلية .. وجاهليتـــها شملت مجال « العقيدة » و « الشعائر » و « الأخلاق » و « المعاملات » .. فلما آمنوا بالله تعالى إيمان عبادة .. غيّروا وجهتهم .. وما زالوا يرتقون في مراتب الكمال المقدّر للبشر إلى أن كانوا بحـــق خـــير القرون .. ويشهد لهذا قوله ﷺ :

« **إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ ، وَ مَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ وَ مَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَ يُوْقَهُ** » السلسلة الصحيحة ٣٤٢ .

ومفتاح الحل إنما يكون بإدراك المعاني الشرعية وإرادة العمل على صبغ حياتنا بها في كل اتجاه .

واعتماداً على ما سبق أقول :

- إن طبيعة العلاقة بين الأم وبين الأب تحدد مستقبل العلاقة بينهما وبين أبنائهما .. فالطفـــل يفتح عينيه على أسرته فيتأثر بأبويه .
- فإذا رأى الطفل أباه يحترم أمه ، وأمه تحترم أباه ، أثّر ذلك في تربيته وفي مـــستقبل حياتـــه الأسرية .
- وإذا رأى الطفل أباه في خدمة أهله متعاوناً مع الأم ، حريصاً على أسرته .. ترك هذا المسلك أثره في الطفل .. وهكذا في الممارسات الإيجابية التي تصدر عن الأبوين ..
- أما إذا رأى الأبناء تطاول الأب على الأم وتطاول الأم على الأب .. وما ينشأ عن ذلك من خصومات وسوء في الأخلاق
- وأما إذا رأى الأبناء أباهم يتكلم في خارج البيت بكلام الصديقين .. فإذا دخـــل إلى بيتـــه اشتغل بالسفاسف والترهات وتناقض مع ما كان يدعو إليه .. ترك هذا آثاره في الأولاد ..

فالإحسان إلى الأبناء يبدأ بحسن العلاقة بين الأبوين ؛ فإذا فسدت وساءت .. كـــان الأبـــوان مسيئين إلى أبنائهما من حيث لا يريدان ، وربما لا يشعران .

وننتقل إلى نقطة ثالثة وهي العناية المباشرة بالأبناء ، ولا أود أن أدخل في الحديث عن الأمور التي ينبغي أن يهتم بها الآباء .. ولكنني أُذكِّر بأن مفتاح الإحسان إلى الأبناء إحساناً مباشراً إنما يكون بفهـــم المراحل التي يمر بها هؤلاء الأبناء ، وأن نحسن التعامل معهم في كل مرحلة ..

من المقرر عند علماء النفس والتربية والاجتماع أن الإنسان يمر بثلاث مراحل قبل أن يصل إلى « مرحلة النضج » ، وهذا التقسيم قد ترد عليه اعتراضات لسنا بصدد الحديث عنها الآن .

المرحلة الأولى : مرحلة الطفولة المبكرة (الأولى)

- هذه المرحلة تمتد من الولادة إلى سن ٥-٦ سنوات .

في هذه المرحلة ينمو الطفل جسمياً ، وعقلياً ، ونفسياً ، وخلقياً ، واجتماعيا

وهذه المرحلة أساسية في تكوين الطفل .. ففيها تلقى البذور الأولى .. ولذا كان الانتبـــاه إلى الطفل ضرورياً .. لأنه يتأثر بكل ما يدور حوله ..

المرحلة الثانية : مرحلة الطفولة المتأخرة (الثانية) :

- وتمتد من ٥ أو ٦ إلى ١٢ سنة (المرحلة الابتدائية) .
- وفي هذه المرحلة يتابع الطفل نموه الجسمي ، والعقلي ، والنفسي ، والخلقي ، والاجتماعي .
- وتتميز هذه المرحلة بأمور ، أهمها :

١) السعي إلى « إثبات الذات » عن طريق المنافسة ، أو الخصومة ، أو المخالفة .

٢) بداية الاهتمام بالقضايا الاجتماعية ، مثل : مشاركة الآخرين في المـــسرات والأتـــراح ، والرغبة في التعاون معهم .

- ومن أهم وسائل التربية في هذه المرحلة :

١- إحاطة الطفل بجو من « الأمن » و « المحبة » و « اعتبار الذات »

وهذه شروط أساسية لنمو الشخصية المنسجمة التي تساعد الطفل على الفهم والتجاوب الإيجابي مع الأبوين .

٢- توفير ظروف اجتماعية مناسبة يمارس الناشئ من خلالها أعمالاً مفيدة نافعة .. ويحـــصل نتيجة ذلك لديه شعور بالارتياح والرضا لتعاونه مع زملائه والآخرين .

٣- تعويد الناشئ .. محبة الآخرين .. والإحسان إليهم .. والتسامح من غـــير ضـــعف .. وتقدير الآخرين والتمتع بالبقاء والعمل مع الخيِّرين وأصحاب الخلق الحسن .



المرحلة الثالثة : مرحلة المراهقة – البلوغ

- وتمتد من ١٢ سنة إلى ١٨-٢٠ سنة .
- من خصائص هذه المرحلة :

١- بلوغ الحلم وبدء وظيفة الإخصاب بما يرافقها من تغيرات لدى الجنسين .

٢- ازدياد وسرعة النمو ازدياداً كبيراً ، وخاصة الجسمي .

٣- نمو الملكات العقلية .. فالناشئ أعمق تفكيراً وانتباهاً وإدراكاً من الطفل .

وينمو عنده بشكل خاص حب « النقد » و « المناقشة » .

٤- ويلاحظ من الناحية الاجتماعية تغيرات أهمها :

- يتضح شعور المراهق بمركزه في الجماعة التي يعيش بينها .. الأسرة .. المدرسة .. الخ .
- تزداد رغبته في الاستقلال والتحرر من السلطة .. ويظهر ذلك بـــصورة احتجـــاج أو غضب أو تعصب لرأي ، أو نقد ، أو جدل .
- يزداد تأثر المراهق بمعايير وسلوك مجموعة الأصدقاء .. ويحاول التشبه بهم .

٥- ويكون النمو الانفعالي واضحاً .. من ذلك :

- بروز ظاهرة الخجل عند الفتى والفتاة .
- الثورة لأتفه الأسباب .
- الاعتداد بالنفس .
- التقلب وعدم الثبات .
- العناية بالملبس ، وطريقة الكلام ، والوقوف مدة طويلة أمام المرآة .

هذه المرحلة من المراحل الهامة في حياة الإنسان .. وفهم طبيعتها ومشكلاتها من قبل الآبـــاء شرط أساسي للدخول إلى حياة الأبناء والتأثير فيها تأثيراً إيجابيا .

وهذه المرحلة التي يخضع فيها الإنسان إلى تغييرات جذرية تنقله من حال إلى حال لا يصح أن يعامل فيها الشاب معاملة الطفل .. كما ينبغي ألا يعامل خلالها معاملة « الناضج » بمجرد بلوغه الحلم .. في كل الأمور .

وبعد :

فهذه المراحل التي أتينا على وصف عام لها يمر بها الطفل والمراهـــق في أوضـــاع اجتماعيـــة طبيعية ، يكون فيها الانسجام قائماً بين الأسرة والمدرسة وبقية مؤسسات المجتمـــع .. أمـــا إذا فُقِـــدَ الانسجام فإن ما ذكرناه يكون أكثر حدة ويترك آثاراً غير حميدة في حياة الأبناء .